

الطفولة المصرية في مصر

لحضرة صاحب العزة الأستاذ وهيب دوس بك

الغماي رعضو مجلس الشيوخ

ليس منا من ينكر أن كل المشروعات والأعمال التي يقوم بها الرجال ويراد لها البقاء والدوام إنما مادتها الأولية هي الطفل . فطفل اليوم هو رجل المستقبل القريب . وإذا أهملنا هذه المادة الأولية لكل ما يمكن أن ينتج في بلد من البلاد كنا مبددين لأكبر عناصر الثروة القومية التي يجب الالتفات إليها قبل الالتفات إلى أي شيء آخر .

استيقظت مصر في السنوات الأخيرة، وكان من آثار هذه اليقظة إنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية . استيقظت مصر لتستغل موارد ثروتها القومية ، فسمعنا بمجهودات ضخمة تبذل في شأن استخراج الحديد من أسوان . ورأينا رجال الفن يجتمعون لبحث كهربية خزان أسوان ، لأن الحديد سي جلب المال ، والمال عتسب الحياة القومية . ولأن كهربية الخزان ستنتج السباد ، والسباد عماد الزراعة ، والزراعة ثروة البلاد . وفي وسط هذا الضجيج وأمانه أريق من المداد على صفحات الجرائد قدر غزير . وكنت أنتظر ، وقد أهملنا أحوال الطفل سنوات عديدة ، أن أسمع من يقول إن الثروة الأساسية في هذا البلد هي الطفولة ، تلك الطفولة المصذبة التي نعرض في هذا المقال ما نراه دواء وعلاجا لأسقامها وآلامها . أين أقوال المصلحين ، وأين أقوال من ينادون باستغلال الثروة القومية وهذا المنجم ، منجم الذهب بين أيدينا نراه ينهب انتهابا ، ويسرق بين سمعنا وبصرنا بيدي المرض والجهل ؟

قد يكون من حسن الحظ أو سوءه أن أقرأ في صحيفة الأهرام وأنا أعد هذا البحث نبأ في ركن متواضع في أحد أنهار الصحيفة عنوانه " خمسة من مائتين يستطيعون دفع خمسة عشر قرشا " إذ أن محكمة فاقوس حاكمت في يوم معين مائتين لأنهم أهملوا تقديم أولادهم للتعليم الإلزامي . ورأب القاضي بهؤلاء فخكم بالحد الأدنى للغرامة وهو ١٥ قرشا فلم يستطع تأدية الغرامة الا خمسة من هؤلاء المائتين ، وكان اعتذار الجميع للحكمة عن عدم إرسال أبنائهم للكتاب الإلزامية هو حاجتهم إلى أجر أبنائهم من عملهم في الحقل ، ليستعينوا به على القوت .

قد يكون مجرد مصادفة أن أقرأ هذا الخبر وأنا أناهب لكتابة هذا الموضوع. ولكن كل من يحب الرفيع يعلم أن هذه المأساة متكررة الوقوع في اليوم الواحد وفي البلد الواحد عشرات المرات، ويعلم كيف يعيش هذا الطفل الوحيد المدلل على أبويه، والذي يملأ البيت بهجة وحبورا. ويعلم أن في كل قرية ألف طفل ينتزعون من نومهم المبكر ليحملوا طعام الغداء إلى آبائهم في الحقول وهم لا يزالون في الخامسة أو السادسة من أعمارهم. وقد تكون المسافة بين الدار والحقل كيلومترين أو ثلاثة أو أربعة، يقطعها الطفل الصغير الغض الجسم ذهابا ويقطع مثلها إيابا عند ما يعود بالمشاية إلى الدار في المساء. فأى إنناك للبدن الناشئ ومخاربه لنموه وسلامته بعد ذلك؟ وأية قسوة على الإنسانية فوق هذه القسوة؟

وأخيرا يسأل الآباء لمناسبة قضايا التعليم الإلزامي - فيكون جوابهم أنهم في حاجة إلى أحرار أولادهم.

ولم أذكر حادثا وقع تحت نظري في أحد شوارع لندرة الكبرى حيث زحام المرور يكاد يزيغ البصر ويضل الفهم. كنت أمر على قدمي فوجدت رجل البوليس الانجليزي قد وقف المرور في الشارع وإذا به يقطع الشارع عرضا ويده طفل في من الرابعة أو الخامسة وهو يحني قامته المديدة ليكلم الطفل عاطفا حانيا مواشيا، فعبرت الشارع إلى الجندي بعد أن أتم مهمته الإنسانية الكريمة، وقلت له: ياسيدي أنت عطلت الشارع. نعم كان يجب أن يمر هذا الطفل، وهذا جميل، ولكن كان يمكن أن تستبقه موك حتى تهدأ حركة المرور. فضحك الرجل وقال ألا تدري ياسيدي أن الثروة الحقيقية في هذه البلاد هي هذه الطفولة؟ من هؤلاء الأطفال سيخرج ولنجتون ودويك وسمى ثلاثة أو أربعة من عظماء انجلترا الذين تدين لهم مجدها الحالي - ذهب فكري حالا وأنا في الشارع المزدهم إلى أن هذا صبيح عندنا أيضا. من أين جاء عبد الله فكري؟ وعلى مبارك؟ والبقلي؟ والفلكي؟ وبقية رجال مصر الذين ساهموا في تأسيس حضارتنا الحالية؟ ألم ينجثوا من هذا الوسط؟ ألم ينتزعوا ابتداء من أوساط لا تعرف؟ ألم يؤخذوا كما تؤخذ الجنود إلى الميدان على الرغم من معارضة أهليهم، ثم أرسلوا قهرا ليتعلموا فنبنوا ونفعوا الوطن. هل يمكن أن يذكر التاريخ لكل العظماء والنوابغ آباء أو أجدادا نابهن خالدي الأسماء؟ أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد؟ هل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئا يذكر عندما كان في مرحلة الطفولة؟ ألم يكن أولهم لقيطا على الوصف الذي ورد في التوراة؟ ألم يكن ثانيهم في حكم اللقيط ينتسب إلى نجار؟ ألم يكن ثالثهم يتيمًا؟ أليس كل ما أوتوا من العظمة لم ينجي إلا بعد أن ارتفعت بهم السن وبنوا مبلغ الرجال؟ ألم يدل التاريخ في كل عصوره وفي جميع الأمم على أن النبوغ ينجيء كثيرا بين الطبقات التي لا يعترف لها بمكانة، وأن رجال التاريخ الذين غيروا وجهه والذين

أوجدوا أسسه قد نشأوا — إلا القليل النادر — من الطبقات الصغيرة ولمعوا في سماء العقبرية بعد أن أمضوا طفولة لا تختلف كثيرا عن هؤلاء الصغار الذين نراهم في الحقول وأماهم ممن تزدحم بهم حوارى قسم السيدة زينب والمناطق الوطنية ؟ كيف يغيب هذا عن رجال مصر وقد بدأنا عهدا يقارب عهد النهضة في أوربا ؟

نعم لقد بدأنا عهدا اشتغلنا فيه بالمسائل العامة والثروة القومية. فكيف نهمل هذا الموضوع ولا يهتم به إلا الزر الضئيل من الكتبيين أو المتكلمين وفي طليعتهم شاعر النيل وشاعر الأخلاق والمروءة شوق، الذى أراد فى إحدى آيات بيانه أن ينبه الى واجب رعاية الطفولة، ويحيى أصحاب الجهود الكريمة فى هذا الباب، فيتن أن هؤلاء الصغار هم عدة المستقبل وإن بدت على كثيرين منهم أمارات الضعف، وجعلهم عدة المستقبل على زرايتهم وفقيرهم وحالتهم الضعيفة، وما هو ذا يصرفهم وهم خارجون من المدرسة يحملون معهم الكتب والدفاتر وحفائب الغداء :

وتلك الأنواع بأيمانهم	حقائب فيها الغد المختبى
ففيها الذى إن يقم لا يعد	من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار	وفيها التبيع وفيها النبي
وفيها المؤنر خلف الزحام	وفيها المقدم فى الموكب

وبعد، فهذه الطفولة التى تحمل فى ضعفها ثروة الوطن وعدة المستقبل، ماذا أعددنا لها من عمل أو تفكير ؟؟

لقد يدر القراء أن يعلموا أن الأمر ليس من الجساماة بالقدر الذى يدعو الى التشاؤم، فهناك على أية حال عناية بالطفولة، لكنها لم توجه توجيهها موفقا .

إن أول معهد أقيم للعناية بالطفل أنشئ فى فبراير سنة ١٩١١ ولم ينشئه مصرى ولا مصرية بل أقامته سيدة خرجت من بلدها فى أمريكا فاصدة أسبوط هى "مس ليليان تراشر" ولم يعمر المعهد أول الأمر إلا بطفل يتيم واحد جاءت به أمه إليه فى فبراير سنة ١٩١١ فكان بداية تكوين لهذا المعهد .

أما الآن — أى فى فبراير سنة ١٩٤٠ — فتمت ضيافة هذا المعهد نحو الثمانمائة، عدا أكثر من ألتى يتيم وقيمة تربوا فيه خلال هذه الثلاثين عاما أى بمتوسط ٨٠ فى السنة . بدأ هذا العمل العظيم فى سنة ١٩١١، وفى الأقوال المأثورة إن أكبر تحية لعمل هى تقليده، فلم تجد إدارة هذا المعهد هذه التحية منا إلا بعد ٢٠ سنة كاملة بحيث بدئ فى إنشاء معاهد

حكومية للطفولة . وسأذكر ما وقع تحت نظري عند تشریف حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك لأسبوط منذ عام واحد :

كنت قد علمت وقرأت أن أحد سرة المصريين من أصحاب الأريحية وهو السيد احمد عمرو باشا تبرع بإنشاء ملجأ ووقف للصرف عليه ٥٠٠٠ فدان من أجود الأقطان فأنشئ هذا الملجأ، ولو وضعت المقارنة بينه وبين الملجأ القديم للامشي القديم نجلا ولزال من الوجود استحياء، فالجديد بناء شاخ فيه النظام مستتب والتهوية التي لا ينالها كثير منا في منازلهم، ولكن هذا الملجأ الجديد الذي ترصد له ميزانية سنوية قدرها ٥٠٠٠ جنيه بلغنى وأنا في أسبوط لمناسبة الزيارة الملكية الكريمة أنهم كانوا يتصيدون له بعضا من غلمان الشوارع لإكمال العدد حتى إذا زاره جلالة الملك رأى فيه عددا محترما من اللاجئين، وبجانبه تماما هذا المعهد القديم تصيح صاحبه والمديرة له : ليس لدى ما أقوت به هؤلاء البؤساء فلا تجد أذنا تصفى لهذا الصباح — لقد حز في نفسي وأثار ألمي ونجلى هذا المنظر وذلك، وجعلت أفكر ففكرت أن العناية بالطفولة يجب أن تكون رسالة سامية، ولا يمكن أن تكون عملا عابثا. أليس ترتيب الدرجات للموظفين ودخول الساعة ٨ الى آخر تلك النظم الحكومية . وهانذا أخطب وزارة الشؤون الاجتماعية بواسطة مجلتها فأقول إننا في الزمن الذي تطالب فيه القوانين أولئك الأطفال الذين بين الخامسة والعاشر بأن يرضخوا للنظم الحكومية وللمعاهد الالزامية، نقضى على معاهد الطفل اليتيم إذ نجعل على بعضها بالمعونة العادية ، ونقاطع البعض الآخر فلا نمده بالأطفال الأيتام الذين حرمتهم الأقدار من حضنة الآباء وحنان الأمهات ومن جو المنزل وليناسه ومن سائرا ينعم به الأطفال الآخرون .

كيف يمكن لهذا المحروم أن يربي وينام بين الضابط والمدرس وكلاهما لا يهمنه قبل كل شيء إلا موعد انصرافه من المعهد الى داره وأسرته ، وكلاهما مشغول عن رعاية ضيوفه الأطفال بالإسراع الى مقابلة المدير ليرجونه ألا ينسأه عند اقتراح الترقيات أو تقرير العلاوات .

كيف يمكن لهذه المعاهد على هذا النظام — وعندنا منها الآن أكثر من خمسين — أن تؤدي رسالة العناية بالطفولة ؟ ذكرنى هذا بأننا عند ما كنا نقرأ عن مدارس الطفولة في أوروبا، كنا نجد الرياضة والإدارة دائما في أيدي سيدات . لأن ما حبت به الطبيعة السيدة من عطف حتى على الغرباء ومرضى النفوس والمسجونين ومن رثاء لآلام المتألمين ، هذه الصفات — قبل المال وقبل كل شيء — هي التي ينفع بها اليتيم والبائس ولا خير في أن نعد للبؤساء السرر الفاخرة والتهوية الصحية دون أن تكون نفوس القوامين عليهم عامرة بالرحمة والحنان .

أترون أيها القراء كيف أن العطف الصادق وحب الخير قد استطاعا وحدهما أول الأمر وبغير مال وفير أن يتغلبا على جميع الصعوبات، وأن يسيرا بذلك المعهد الناشئ سيرا حثيثا نحو النجاح ؟

لقد بدأت السنة الماضية وفي المعهد ثمانمائة طفل يربون ويطعمون ويكسون ويتعلمون. فهل تدري يا سيدى القارئ كم كان رأس المال المدخر للاتفاق منه على كل ذلك؟ لا شيء! لا بل لقد كان المعهد مدينا بمائة وعشرين قرشا من حساب السنة التى قبلها .

وإنكم لترون مدير المعهد جادا فى تدبير حياة هؤلاء الزلاء البائسين ، ولقد جمع لهم خمسة آلاف جنيه فطعموا واكتسوا وتخرج منهم من تخرج ، ونال عدد منهم شهادات نافعة ، وبعد هذا كله ينتهى العام بعجز جنيتين ونبدأ عاما جديدا . هذه هى الروح العاطفة التى يسير عليها ذلك المعهد الأجبنى . أما فى معاهدنا الخمسين فقد جرينا على أن المدرسين ورعاة الطفولة لا ينظرون الى عملهم الا كموظفين تعينهم الدرجات والعلاوات والإجازات وبدل السفر قبل أن تعينهم الرسالة الانسانية السامية : رسالة البر بالطفولة والرأفة بالمتكويين .

كنت ولا أزال أرجو أنه اذا استيقظت الضمائر ولانت القلوب وفتحت العقول تسير هذه المعاهد سيرة أمثالها عند الأجانب ، فتصان لنا هذه الثروة النافعة - ثروتنا من الطفولة - ولا نظل نفقدها يوما بعد يوم . ولعمري ليس أعون على ذلك من أت نكل الى السيدات المشتقات الرحيمات مهمة العناية بالأطفال فى هذه المرحلة من أعمارهم ، فان جميع مدارس الأطفال فى البلاد التى سبقتنا خطوات فى سبيل هذه المشاكل الاجتماعية تديرها السيدات وجميع المدرسين للأولاد والبنات من سن الخامسة الى الثانية عشرة هم من السيدات . لأن التجارب التى سبقنا إليها هؤلاء الأقوام دلت على أن الطفل فى هذه السن الباكرة لا يفهم إلا من سيدة ، هذا الطفل الذى اذا ترك المعهد كان عادة بين أحضان أمه وأخته ، فما بالكم بمن حرم حتى من هذا فكان يقيم محروما ليس له أم أو أخت تعنى به . إنه لفى أشد الحاجة الى سيدة تعيره ما فقد من عطف الأمومة ورقتها .

نعم إنى أرجو أن يستيقظ فى الجمهور المثقف الذى يقرأ الصحف والمجلات فيهم بهذا الشأن لا أت يخرج من كل ما يقرأ بالثناء على الكاتب أو بانتقاصه . فاننا اذا جرينا وراء استنباط الحديد من أسوان والكهرباء من الخزان وإصلاح الأراضى البور وكان هذا كل ما نغنى به بكفاءة ، فنحن سفهاء مبددون . لأن عماد الثروة الأولى والمادة الأولية للأجيال المقبلة هى هؤلاء الأطفال ونحن مهملون فى شؤونهم إهمالا يكاد يجهنا فى حكم الجناة . جميل جدا أن أرى وزارة الشؤون الاجتماعية تعنى بأن توفر للفلاح الماء الصالح للشرب لتدفع عنه جرائم الأمراض والأوبئة ، وإن كان الفلاح قد خلق وعاش قوى البنية متمتعا بمناعة ضد الحر والبرد والجوع والظلم ، متمردا على قواعد الطب بل على نظام الطبيعة . لكن هل فكرت وزارة الشؤون الاجتماعية فى نفس الوقت فى طريقة التعليم الإلزامى ، وكيف يحشد

الأولاد في هذه القاعة التي يقوم فيها المكتب أو المدرسة ؟ وكيف يزدحمون في الفصل الضيق وبينهم من المرضى بالأمراض المعدية عدد غير قليل ؟

إن بين قراء هذه المجلة وجهاء وأصحاب أملاك في بلاد الريف يعرفون حالة هذه المدارس الالزامية وكيف أن الاجتماع الذي يتم في قاعاتها بين الأطفال هو مصدر خطر يزيد عشرات الاضعاف على خطر الاستقاء من ماء غير مرشح أو غير نقي .

أنا لا أقول إن هذا معناه أن نهمل ما تم أو ما شرع فيه . ولكن إذا كان لابد من تفضيل أمر على أمر فخير لنا أن نبدأ من هذا الأساس .

طفولة مصر الآن هي طفولة مقضى عليها بالآ تفزع لنا رجلا صحيحا واحدا . لأن الأمراض الاجتماعية والاقتصادية التي تفعل فعلها في الرجال ، لها في أطفالنا أثر أشد وأكبر ، أضف الى هذا أثر ضيق الرزق وسوء الحالة الاجتماعية عند الآباء .

يحاولون أن أكرر أن أطفالنا هم المادة الأولية لحياتنا كلها ، هم مادة الجيش وهم مادة المدرسة ومادة الدواوين ووظائفها ، أوهم الخانات التي نعتد عليها في بناء البلد . من منا رفع صوتا أو حرك قلما للدفاع عنها ؟ كل ما عمل ورويت طرفا منه لكم هو إنشاء معاهد عددها خير من وجودها ، لأنه لم يفكر أحد فيما تدعو اليه الحال من صنوف العناية الواجبة للطفل ، فساءت الحالة الى الحد الذي تبينه جريدة الاحرام حين تروي لنا أن مائتي طفل لم يرسلوا الى المدرسة الالزامية لاحتياج أهلهم الى أجر عملهم في الحقول ، ولو نالت هذه المعاهد قليلا من العناية والخدمة والنظام لوجدنا الطفل يهرب من بيت والديه ليذهب الى المدرسة .

أما والحال هكذا فالطفل يفضل الهرب من المدرسة ليحمل الطعام الى والده على بعد أميال فهو على الأقل يتمتع بالحضرة الجميلة والهواء الطلق ويسمع تغريد الطيور مما لا يتوافر له في قاعات المكاتب الأولية . ليس للقوام على المكاتب وقت للتفكير في شؤون هذه المعاهد الثينة التي نودعها هؤلاء الأطفال ومهما قيل في فوائد إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية فإني أرى أن من أول واجباتها أن تتصل بضمائر الموسرين وأن تعمل على إيقاظ تلك الضمائر وتبث فيها الحذب على الطفل الضعيف والرئاء له وبذل المال في سبيل تربيته وتكوين جسمه وعقله أحسن تكوين .

ولا أختم كلامي قبل أن أعود الى ضرب المثليين البارزين الذين يبينان أثر العناية في حسن تنشئة الأطفال ، ثم أثر التفريط والاهمال ويكشف عن شيء من ضعف تقديرنا لأعمال البر ، ولجهود العاملين .

ففى المعهد الذى اتخذته أنموذجا لمعاهدنا فى أسبوط : ٨٠٠ نزيل بعد ٣٠ سنة من إنشائه ويقابله معهد مثله يحتوى على ستين طفلا فقط وميزانيته فى السنة ٥٠٠٠ جنيه أى أن اليتيم الواحد يتكلف ما بين ثمانين جنيها وتسعين أى نحو ثمانية جنيها فى الشهر ، على حين أن المعهد الأول القديم الكبير العدد لم يخصص له فى ميزانية مجلس المديرية إلا أربعة جنيها فى الشهر تخصص منها الدفعة ، ونحن نسو على معهد قليل الإنتاج ونفنى على معهد راسخ ناسخ الثمرات . فهل يمكن مع هذه المقارنة المؤلمة أن ندعى لبلاطنا أنها استيقظت وبلغت من الإصلاح الاجتماعى مبلغا محمودا ؟ !

وهل لى أن أسأل المشتغلين بالإصلاح الاجتماعى من حكوميين وشعبين أين الحداثى التى خصصت لأطفال المدن الكبرى كالقاهرة والاسكندرية ؟ فإذا لم نطالب بمحاذات لأن الحياة كثيرة التكاليف ومصلحة التنظيم تسوف وتبخل ، فهل لنا أن نسأل أين الميادين النفسية التى جعلت للأطفال يلعبون فيها ويتعون نفوسهم المرححة ؟

مر فى أى حارة من حارات السيدة زينب أو الخليج المصرى أو تحت الربيع تجد أن هذه الطرقات مهملة مملوءة بالأقذار والأطفال يتمرغون فيها . ولا حيلة فى ذلك ، فالطفولة لا بد لها من المرح ومن اللعب . لهذا كثر عدد فاقدى البصر فى مصر ، ولهذا كثرت نسبة الوفيات بين الأطفال ، وخسارة المجتمع فادحة بين أولئك وهؤلاء ، وما أحرانا بأن نحفظ بأطفالنا هؤلاء إذ هم رأس مال ضخم لنا ولو نبغ واحد من كل ألف لكان ربنا لوطن ما

وهيب دوس